# أعلام الصوفية في خراسان

## في القرنين الثاني والثالث الهجري

الدكتور مفيد محمد نوري

ظهرت حركة الزهد في الاسلام حيث ان محمدا «ص» واتباعه الاولين كانوا يقومون الليل كله او بعضه تهجدا وعبادة . وقد وضع الاسلام لاتباعه حدوداً وشروطا تمت بصلة الى الزهد كالصوم والصلاة والحج والزكاة وتحريم الخمر . ولكنه ، في الوقت نفسه .لم يحرم الاسلام على اتباعه التمتع بزينة الله التي اخرجها لعباده من الطيبات: قال تعالى: « قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق. قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامه. كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » «١». ومع ذلك، تحدثنا المصادر بأن فئة من المسلمين الأوائل قد سلكوا طريق الزهد وهم اهل « الصفه » وكان هؤلاء من اصحاب رسول الله. لا منازل لهم؛ فكانوا يأوون الى صفة بناها الرسول خارج المسجد بالمدينه. «٢» وقد انفرد القرن الاول في الاسلام بالعوامل الكثيرة التي شجعت على ظهور الزهد. والدين الاسلامي كان المشجع الاساس لهذه الحركة. قال تعالى: « يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم. ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »

---

(١) الاعراف ، آية ٣٢ .

(٢) ابن سعد ، ابو عبدالله محمد ، الطبقات الكبرى ، بيروت ١٩٦٠؛ ج ١ص ٢٥٥ ، انظر بالتفصيل : الاصبهاني ، ابو نعيم ، حلية الاولياء، بيروت ١٩٦٧، ص٣٣٧ الى ص ٣٨٥ .

«٣» وقال: «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رؤوف بالعباد» «٤». وفي الوقت الذي احتضن الاسلام حركة الزهد على اعتبارها حركة دينية من صميم تعاليم الاسلام الروحية وقف بشدة ضد الرهبانية التي هي بدعة ابتدعتها المسيحية، قال تعالى: «... ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ...» «٥» وقال الرسول «ص» مؤكدا على ما جاء في القرآن: «لا رهبانية في الاسلام» «٦».

ونمت حركة الزهد في ظروف سياسية شاذة في القرن الاول الهجرى فالحروب الاهلية الطويلة الامد في عهد الصحابة وبني امية والتطرف العنيف الذي اتسمت به الاحزاب السياسية وما عانى المسلمون ممن اخلصوا في اسلامهم من قبل بعض الحكام المستبدين. أدى بطبيعة الحال. الى ازدياد شعور المؤمنين بالزهد في الحياة الدنيا ومتاعها ووضعوا امالهم في الاخرة ووجدوا في القرآن والسنة خير موجه في حياتهم الزهدية. ووقفوا موقف اللامبالاة تجاه الحكام آنذاك.

ولكن حركة الزهد اصبحت بالتدريج قوية وعنيفة وانتشرت في جميع بقاع المسلمين فبعد ان كانت حركة الزهد دينية خالصة في بادىء الامر دخلت اليها بعض العناصر الصوفية وتحولت في النهاية الى اقدم صورة نعرفها في التصوف الاسلامي في القرن الثالث الهجرى وما يليه ولعب الزهاد

---

(٣) الصف، آية ١٠ وآية ١١.

(٤) البقرة آية ٢٠٧.

(٥) الحديد، آية ٢٧، انظر كذلك: التوبة، آية ٣١؛ المائدة، آية ٣٢، النور الآيات ٣٦، ٣٧: ٣٨.

(٦) الشوكاني، محمد بن علي: نيل الاوطار، شرح منتقى الاخبار من احاديث سيد الاخيار، القاهرة ١٩٥٢، ج ٦، ص ١١١: وفيه ان هذا الحديث لم يذكر بهذا اللفظ عند الطبراني «ان الله ابدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة». انظر كذلك: طبارة، عفيف عبدالفتاح روح الدين الاسلامي، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٤٣.

الخراسانيون الدور الرئيسي في نمو هذه الحركة «٧» .

وكان القائمون على حركة الزهد في خراسان من اشهر اتقياء المسلمين على المذهب الحنفي. ونالت الحركة العطف الشديد من قبل الحكام وانعموا على بعض هؤلاء الاتقياء بالوظائف الادارية والدينية كرئاسة المدن والقضاء والخطبة «٨». وزهد البعض الاخر بهذه الوظائف كما زهدوا بالحياة الدنيا ومتاعها ، وحولوا انظارهم نحو الآخرة ووضعوا آمالهم فيها.

فبرز من الزهاد في خراسان في القرن الثاني الهجرى اعلام اثروا على حركة الزهد وكان من ابرزهم: ابراهيم بن ادهم البلخي وعبد الله بن المبارك.

اما ابراهيم بن ادهم فهو من مدينة بلخ في خراسان وقيل عنه: انه كان اميراً «حاكماً» في بلخ. ولكنه زهد في الحكم ولبس الصوف وهام على وجهه في بلاد الشام. يعيش من كسب يده من حراسة البساتين وغير ذلك، ودخل البادية ثم دخل مكة وصحب الفقيه سفيان الثوري «ت ١٦١هـ-٧٧٧م» والفضيل بن عياض «ت ١٨٧هـ/٨٠٣م» ودخل الشام ثانية ومات بها سنة

---

(٧) نيكلسون ، في التصوف الاسلامي وتاريخه . ترجمة ابي العلا عفيفي ، القاهرة ١٩٥٦ ؛ ص ٤٣ وما يليها : البير نادر . التصوف الاسلامي، بيروت ١٩٦٠ ، ص٩ :وحول الزهد والتصوف وتطوره انظر : نيكلسون ' الصوفية في الاسلام ، ترجمة نورالدين شريبة ؛ القاهرة ١٩٥١ ؛ وانظر كذلك :

Massignon,L., Essai sur les origines du lexique technique de la Mystique Muslumane, (Paris 1922 : Amedroz, H.F., Notes on some Sufi lives, Journal of the Royal Asiatic Society (1912) p.p. 551-86: Ency. of Religion and Ethics, Edinburgh, (1963 and 1964) articals " Asceticim," "Sufis".

(٨) Nouri, M.M., The Scholars of Nishapur, Theisis, Ph.D. (Edinburgh 1967) vols., 11, p.p. 631-36.

١٦٢هـ/٧٧٨م «٩» . ويعتقد نيكلسون Nicholson بان للغنوصية المسيحية اثرا على التصوف الإسلامي عن طريق ابراهيم بن ادهم «١٠».

ولقد اشار ابراهيم بن ادهم الى العقبات الست التي لا ينال السالك درجة الصالحين حتى يجتازها والتي تشبه بالابواب السبعة عند الغنوصية والعقبات الست التي ذكرها هي :

اولاها : تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

والثانية : تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .

والثالثة : تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

والرابعة : تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

والخامسة : تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .

والسادسة : تغلق باب الامل ، وتفتح باب الاستعداد للموت . «١١»

اما الابواب السبعة عند الغنوصية فملخصها انها لا تفتح للنفس – وهي سائرة في طريقها الى الخلاص – الا اذا حصلت « المعرفة » او العلم الباطن. واجتازت الحراس القائمين على هذه الابواب واحدا واحدا . واذا تم ذلك ينال السالك درجة الصالحين . ويعتقد نيكلسون ان المذهب الغنوصي اصابه بعض التغيير على ايدى مفكرى المسيحية واليهودية . وبعد امتزاجه بالفكر اليوناني اصبح مصدر الهام لمفكرى التصوف الاسلامي . واكد نيكلسون اننا لو درسنا الظروف التاريخية التي احاطت بنشأة التصوف الاسلامي

---

(٩) السلمي ، ابو عبدالرحمن ، طبقات الصوفية ؛ ليدن ، ١٩٦ ، ص ٣٠ : الشعراني ، عبدالوهاب : الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الانوار في طبقات الاخيار ؛ القاهرة ١٨٩٨ ج ١ : ص ٦٩ .
القشيري ، ابو القاسم ، الرسالة القشيرية ؛ تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود ومحمود بن الشريف ؛ ج ١ من ص ٥١ الى ص ٥٢ .

(١٠) نيكلسون ، التصوف الاسلامي ؛ ص ١٧ وما يليها .

(١١) القشيري ج ١ ؛ ص ٥٢ .

لاستحال علينا ان نرد اصله الى عامل فارسي او هندى « ١٢ » . ولا ريب اننا لا يمكننا ان نأخذ برأى يكلسون على علاته من دون الاشارة الى ان التصوف في الاسلام نشأ نتيجة لحركة الزهد المجردة والبعيدة عن الافكار الغريبة عن الاسلام . واذا كانت بعض افكار مريدى الصوفية مطابقة او متطورة عن الفكر المسيحي فهذا ليس بدليل قاطع ان نرد نشأة التصوف الاسلامي وتطوره الى الفكر المسيحي وخاصة اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان للديانات السماوية اصولا متشابهة .

ويرى بعض المستشرقين من امثال بوزورث Bosworth وجولد زيهر Goldziher انالتصوف في الشرق الاسلامي قد تأثر بتعاليم بوذا. ويعتقد «١٣» جولد زيهر ان الزاهد الصوفي ابن ادهم يبدو في الرواية الاسلامية اميرا لبلخ ثم تخلى عن عرشه واضحى درويشا متنقلا وما ذلك الاتكرار لقصة بوذا الا ان هذه المطابقة في حياة بوذا وحياة الزهاد المسلمين لا يمكن ان تكون الدليل القاطع على تأثير البوذية في الحركة الصوفية لدى المسلمين. وبالرغم من ان البوذية قد سادت خراسان قبل الفتح الاسلامي بألف عام كما سادت في فارس الشرقية عموما. فان العامة من المسلمين ينظرون الى اتباع بوذا كمشركين ووثنيين . فليس من قريب ولا من المحتمل ان يتأثر المسلمون بتعاليمهم البوذية «١٤».

اضف الى ذلك ان هناك خلافا اصيلا بين الصوفي والبوذي، فهما في روحيهمامتعارضان البوذي يقوم نفسه بنفسه، اما الصوفي فيقوم نفسه بمعرفة

---

(١٢) نيكلسون : في التصوف الاسلامي : ص١٨ .

(١٣) Bosworth, C.E., The Ghaznavids 994-1040. Edinburgh 1963, P189.

: يشرح بوزورث سبب اعتقاده بان الصوفية في الاسلام قد تأثرت بالبوذية .

انظر كذلك ، جولد زيهر كما ذكره نيكلسون في كتابه الصوفيةفي الاسلام ص ٢١ ومايليها.

(١٤) نفس المصدر ، ص ٢٢ ومايليها .

ربه وحبه «١٥».

وبرز ايضا، في القرن الثاني الهجري في خراسان العلامة الرباني الزاهد عبد الله بن المبارك، كان تركيا ومولى لقبيلة حنظلة العربية. ولقد تجول في مدن خراسان ثم ذهب الى بغداد حيث صاحب علماء الصوفية وعقد المجالس معهم ثم حج واستقر في مكة مدة حيث درس موطأ مالك بن انس ثم رجع الى مرو في خراسان وعقد له مجلس الحديث هناك. وكان العلماء في مرو منقسمين الى قسمين: قسم يتبع اصحاب الحديث والقسم الاخر يتبع مذهب ابي حنيفة الأأن ابن المبارك تمكن من الجمع بينهما في مجلسه وبنى لكلا الفريقين رباطاً ثم ذهب الى مكة وحج ثانية وانضم بعد ذلك مع المجاهدين لمحاربة الروم في طرسوس وعند رجوعه من الجهاد توفي في مدينة هيت عام ١٨١هـ/ ٧٩٧م«١٦».

يعتبر ابن المبارك من أوائل الكتاب في الزهد والفقه وعلوم القرآن والحديث. جمع الاحاديث في كتابين احدهما سماه «الاربعين» والاخر «سنن الفقه». ولقد درس هذين الكتابين المحدث المشهور صاحب «الصحيح» البخاري «ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م» .وكذلك. الف كتابا في تفسير القرآن وآخر في قتال المشركين

---

(١٥) نفس المصدر ؛ ص ٢٢ : قارن البير نصري نادر ؛ التصوف الاسلامي : من ص٤٠ الى ص ٤٧ .

(١٦) الشعراني ، ج١ ص ٥٩ ومايليها : ابن العماد ؛ ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب . القاهرة ١٩٣١ ، ج ١ص٢٩٥ ومايليها : ابن خلكان : شمس الدين احمد ، وفيات الاعيان ، القاهرة ١٨٩٢ ، ج١ ص ٣١١ : ابن الجزري شمس الدين ابو الخير محمد ، طبقات القراء ، القاهرة ١٩٣٣ ، ج١ص ٤٤٦ : الاصبهاني : ج٨ من ص ١٩٠ الى ص١٩٢ : الخطيب البغدادي . ابوبكر احمد، تاريخ بغداد. القاهرة ١٩٣١ . ج١ من ص ١٥٨ الى ص ١٦٢ ؛ انظر كذلك :

Hujwiri, Abu'l-Hasan 'Ali, Kashf al-Mahjub, tr. Nicholson, R.A., (E.J.W. Gibb memorial series), London 1959, p.p. 95-97: Nouri op. cit., vol. I, FI. p.p., 101-103.

سماه «الجهاد». وقيل: ان اشهر كتبه هو ما كتبه في الزهد وسماه «الزهد والرقائق» الا ان مؤلفاته – عدا كتاب الزهد والرقائق والجهاد – لاتزال مفقودة «١٧».

ويمكننا ان نعتبر ابن المبارك من اوائل الصوفية في خراسان ممن اتصلوا بالطائفة المسيحية في مرو. وقيل: انه تعلم الصوفية على يد راهب مسيحي «١٨» الا ان المصادر التاريخية تجمع على انه تمكن من ادخال الكثير من المسيحيين في الدين الاسلامي. ومن اشهر الذين دخلوا الاسلام على يد ابن المبارك هو ابو علي الماسرجسي الذى اصبح احد علماء الحديث في مرو «١٩». وبالرغم من ان اكثر علماء الصوفية تأثروا بافكار المرجئة وخاصة هؤلاء الذين على المذهب الحنفي فان ابن المبارك رفض جميع الافكار الغريبة عن الصوفية وخاصة افكار المرجئة وقال بهذا الصدد: «انا خالفت المرجئة في ثلاثة اشياء فانهم يزعمون الايمان قولا بلا عمل وانا اقول هو قول وعمل. ويزعمون أن تارك الصلاة لا يكفر وانا اقول: انه يكفر. ويزعمون ان الايمان لا يزيد ولا ينقص وانا اقول: انه يزيد وينقص» «٢٠». ويكتب لنا القشيرى في رسالته بعض الاقوال في تعاليم الصوفية العائدة الى ابن المبارك: ففي باب الخشوع والتواضع يقول ابن المبارك: «التكبر على الاغنياء والتواضع للفقراء من التواضع» «٢١» ويقول في باب الحسد: «الحمد لله الذى لم يجعل في قلب اميرى ما يجعله في قلب حاسدى» «٢٢». وفي باب الغيبة

---

(١٧) حجي خليفة، مصطفى [illegible] جلبي، كشف الظنون، اسطنبول ١٩٤١-١٩٤٣، ج١ ص٥٧ ج٢ ص ٩١٠، ص ١٤١٠ وص ١٤٢٢: ابن النديم ابو الفرج محمد الوراق، الفهرست، القاهرة ١٣٤٨ هـ/ ١٩٣٠م، ص ٣١٩.

(١٨) Hujwiri, P. 96

(١٩) ابن خلكان، ج ١ ص٤٨١: الخطيب البغدادي، ج٧ ص ٣٤٢.

(٢٠) الشعراني، ج١، ص ٥٠.

(٢١) القشيري، ج١ ص ٣٤٣.

(٢٢) نفس المصدر، ج١ ص ٣٤٦.

يقول: «لو كنت مغتابا لاحد لاغتبت والدى .لانهم االحق بحسناتي »

« ٢٣ ». وفي باب التوكل يقول: « من اخذ فلسا من حرام فليس بمتوكل» « ٢٤ ». وفي باب الجود والسخاء يقول: « سخاء النفس عما في ايدى الناس افضل من سخاء النفس بالبذل « ٢٥ ». وفي باب الفقر يقول: «اظهار الغنى في الفقر احسن من الفقر » « ٢٦ ». وفي باب الادب يقول: « الادب للعارف كالتوبة للمستأنف » «٢٧ ». وقال في باب المحبة: « من اعطى شيئا من المحبة ولم يعط مثله من الخشية فهو مخدوع » « ٢٨ ».

وكان من ابرز شيوخ الصوفية في خراسان الذين تأثروا بالمرجئة ونشروا مذهب الصوفية هو يحيى بن معاذ الرازى عاش في القرن الثالث الهجرى .وهو عالم من الرى ويعتبره ابن العماد حكيم زمانه وواعظ عصره « ٢٩ ». تكلم في علم الرجال فاحسن الكلام فيه.وقيل:انه اول من حاضر في التصوف علانية على الناس بعد ان كانت تعاليم الصوفية تعلم في حلقات سرية في بيوت خاصة او في السراديب . ولقد درس يحيى الرازى التصوف في بلخ حيث مكث فيها مدة وصاحب ابن كرام في نيسابور واخذ عنه التصوف وذهب الى بغداد .وفي هذه المدينة اتصل بحلقات الصوفية .ثم عاد الى

(٢٣) نفس المصدر . ج١ ص ٣٥٩ .

(٢٤) نفس المصدر . ج١ ص ٣٨٠ .

(٢٥) نفس المصدر . ج٢ ص ٥١١ .

(٢٦) نفس المصدر ج٢ ص ٥٤٢ .

(٢٧) نفس المصدر . ج٢ ص ٥٦١ : المستصعب في مبادى .

(٢٨) نفس المصدر ج٢ ص ٦٢١ .

(٢٩) ابن العماد . ج٢ ص ١٣٨ .

نيسابور ومات في ٢٨٩هـ ٨٧١م « ٣٠ ».

كان يحيى الرازي من المتصوفة الذين يعتبرون من اولياء المسلمين واصحاب الكرامات . قال عنه الحصرى: « لله يحيان: احدهما نبي .والاخر ولي . والولي هو يحيى بن معاذ » « ٣١ » ووصفه القشيرى بأنه: «نسيج وحده في دقته .له لسان في الرجاء خصوصا وكلام في المعرفة » ٣٢ ». تكلم كثيرا في الزهد ومن اقواله: « التائب يبكيه ذنبه . والزاهد يبكيه غربته. والصديق يبكيه خوف زوال الايمان » « ٣٣ ». وقال :« الدنيا بحر التلف والنجاة منها الزهد » « ٣٤ » وقال ايضا : « جوع التوابين تجربة .وجوع الزاهدين سياسة وجوع الصديقين تكرمة » « ٣٥ ». وعرف الزهد بأنه ثلاثة اشياء: القلة .والخلوة. والجوع « ٣٦ ».

لقد كتب القشيرى اقوال يحيى الرازى في ابواب عديدة .فمنها قوله في التوبة: : : « يا الهي لا اقول تبت .ولا اعود لما اعرف من خلقي. ولا اضمن ترك الذنوب لما اعرف من ضعفي .ثم اني اقول: لا اعود لعلي

---

(٣٠) الاصفهاني ، ج١٠ ص ٥١ : السلمي ص ٩٨ ، ابن خلكان ، ج٢ ص٢٢ وما يليها الخطيب البغدادي ، ج١٤ من ص ١٠٨ الى ٢١٢ : الشعراني ، ج١ ص ٨١ : المناوي عبدالرؤوف بن تاج الدين . الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، القاهرة ١٩٣٨ ، ج١ ص ٢٧٢ وما يليها : بعض اقواله قد ترجمت الى الانكليزية من قبل
Smith M., Readings form mystics of Islam, London, 1950, P. 25.
والفرنسية من قبل Massignon, op. cit., P.P. 238-42

(٣١) الحصري كما ذكره الهجويري : Hujwiri. P. 122

(٣٢) القشيرى ، ج ١ ص ٩٠ .

(٣٣) الاصبهاني ، ج ١٠ ص ٥٤ .

(٣٤) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٥٥ .

(٣٥) القشيري ، ج١ ص ٩١ .

(٣٦) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

ان اموت قبل ان اعود » « ٣٧ ». وقال في الخلوة والعزلة: « انسك بالخلوة . او انسك معه في الخلوة . فان كان انسك بالخلوة ذهب انسك اذا خرجت منها . وان كان انسك به في الخلوة استوت لك الاماكن في الصحارى والبرارى » « ٣٨ » وقال في الورع: «الورع: الوقوف على حد العلم من غير تأويل » «٣٩ » . وقال في الزهد: « الزهد يورث السخاء بالملك والحب يورث السخاء بالروح » « ٤٠ ».

وقال في الخوف : « مسكين ابن آدم . لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة » وقال في الرجاء: « الهي . احلى العطايا في قلبي رجاؤك . وأعذب الكلام على لساني ثناؤك . واحب الساعات الي ساعة يكون فيها لقاؤك » « ٤١ » وقال في الجوع وترك الشهوة: « لو ان الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الاخرة اذا دخلوا السوق ان يشتروا غيره» « ٤٢ ».

وقال في الخشوع والتواضع: « التواضع حسن في كل احد. لكنه في الاغنياء احسن . والتكبر سمج في كل احد لكنه في الفقراء اسمج » « ٤٣ » وقال في الصبر : صبر المحبين اشد من صبر الزاهدين. واعجبا. كيف يصبرون؟ وانشدوا:

الصبر يحمد في المواطن كلها الاعليك فانه لا يحمد « ٤٤ »

---

(٣٧) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٦٠ .
(٣٨) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٧٣ .
(٣٩) نفس المصدر ، ج١ ص ٢٨٥ .
(٤٠) نفس المصدر ، ج١ص٢٩٤ .
(٤١) نفس المصدر ، ج١ص٣٠٩ وص٣٢٠
(٤٢) نفس المصدر ج١ص٣٢٢ .
(٤٣) نفس المصدر ،ج١ص٣٤٣ .
(٤٤) نفس المصدر ،ج١ص٣٩٩

وقال في الارادة: «اشد شيء على المريدين: معاشرة الأضداد» «٤٥» وقال في الحياء: «من استحيا من الله مطيعا استحيا الله تعالى منه وهو مذنب» «٤٦» وقال في الحرية: «ابناء الدنيا تخدمهم الاماء والعبيد وابناء الاخرى تخدمهم الاحرار والابرار» «٤٧». وقال في صفة الاولياء: «هم عباد تسربلوا بالانس بالله تعالى بعد المكابدة. واعتنقوا الروح بعد المجاهدة. بوصولهم الى مقام الولاية» «٤٨». وقال في الادب: «اذا ترك العارف ادبه مع معروفه «٤٩». فقد هلك مع الهالكين» «٥٠». وقال في المحبة: «حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء. ولا يزيد بالبر. وقال: ليس لصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده» «٥١» واخيراً قال في الشوق: «علامة الشوق: فطام الجوارح عن الشهوات» «٥٢».

وظهر. في اواخر القرن الثالث الهجري. العلامة الفيلسوف المتصوف الحاكم ابو عبد الله محمد بن علي الترمذي. من ابناء مدينة ترمذ. اتهم بالبدعة فطرد من ترمذ وذهب الى بلخ حيث صاحب المتصوفة ابا تراب النخشبي وابن خضروية وابن الجلاء وغيرهم. ثم ذهب الى نيسابور عام ٢٨٢هـ/٨٩٥م حيث روى الحديث هناك وتوفي عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م. ولقد ترك الحاكم الترمذي اثراً كبيراً على ابناء بلدته من المتصوفة حيث قيل: ان فرقة من الصوفية نشأت هناك بعد وفاته واطلقت عليها اسم «الحاكمية». والحاكم الترمذي يعتبر من

---

(٤٥) نفس المصدر، ج٢ص٣٧ : .
(٤٦) نفس المصدر، ج٢ص٥٨ : .
(٤٧) نفس المصدر، ج٢ص٦٣ : .
(٤٨) نفس المصدر، ج٢ص٢٢ : .
(٤٩) اي مع الله .
(٥٠) نفس المصدر، ج٢ص٦٠ .
(٥١) نفس المصدر، ج٢ص٦١٦ .
(٥٢) نفس المصدر، ج٢ص٦١٧ .

اكابر الكتاب الذين لهم باع كبير في علوم التصوف والكلام والفلسفة. كما انه كان يعتبر من المتضلعين في الفقه الحنفي. وقيل: انه درس الفقه على ابي حنيفة «٥٣». ولقد تناول ماسنيون Massignon مؤلفات الترمذي واعتبره اول صوفي مسلم يمكننا من خلال مؤلفاته ان نرى تأثير الفلسفة الهيلينية Hellenistic Philosophy

كما اشار الى انه في كتابه «نوادر الاصول» و «ختم الولاية» يحاول الاعتماد على المصادر السنية في الصوفية وبطريقته العلمية المجردة والتي قد طورت من بعده من قبل الشيعة المتطرفين «الاسماعيلية». وفي كتبه: «علل العبودية» و «شرح الصلاة» و «الحج واسراره» يحاول ان يفسر بطريقة عقلية للاسس التي قامت عليها المدارس السنية الاربع. كما انه يعتبر اول كاتب في العالم الاسلامي كتب كتابا حول تاريخ الصوفية وتراجم رجال الصوفية والذي سماه «تاريخ المشايخ» وقد فقد هذا الكتاب ولكنه وصلت الينا مقتطفات منه من خلال كتاب الصوفية الذين جاءوا من بعده. واشار ماسنيون كذلك الى ان تعاليم الترمذي قد استمرت لقرون عديدة من خلال مؤلفاته. ويظهر تأثيره بصورة خاصة في الاندلس حيث ان العلامة المتصوف ابن العربي جاء بعده بثلاثة قرون فدرس مؤلفاته وتأثر بها وخاصة كتابه «ختم الولاية». «٥٤» ولقد قدم لنا بروكلمان

---

(٥٣) Hujwiri, p.p. 141-42

انظر كذلك الشعراني، ج١، ص٩١: طاش كبرى زاده، احمد بن مصطفى الخليل: مفتاح السعادة ومصباح السيادة: حيدر اباد، ١٩١٠—١٩٢٧، ج٢ص٣: السبكي، تاج الدين عبدالوهاب، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١٩٠٦—١٩٠٥، ج٢ص٢٠: وانظر:

Massignon, L. Ency., of Islam, 1st ed., art., "Al-Tirmithi"
Nouri, op. cit., F. 7. P.P. 107-110.

(٥٤) Massignon, Essai sur les origines du lexiqu techniques de la mystique muslumane. P.P. 256-259.

قائمة بكتبه الموجودة والمفقودة منها ،الموجودة منها هي : (٥٥)

١- ختم الولاية «الاولياء» الذي يعتبر كتابه الجوهري الا ان الفصل الاول من هذا الكتاب موجود في الوقت الحاضر وهو ما يتعلق بفهرست المحتويات.

٢- كتاب علل العبودية.

٣- كتاب الاكياس والمغترين.

٤- رياضة النفس.

٥- جمال كتاب «عثمان بن سعيد» من الري.

٦- بيان الكسب.

٧- الدر المكنون في اسئلة ما كان وما يكون.

٨- نوادر الاصول.

٩- كتاب الفروق.

١٠- شرح الصلاة.

١١- الحق واسراره.

١٢- منازل العباد والعبادة.

١٣- العقل والهوى.

١٤- المنهيات.

١٥- الامثال من الكتاب والسنة.

١٦- ادعية وعزائم.

١٧- رسائل حاكم ترمذي «بالفارسية».

١٨- شرح السوءالات في التعبيرات الالهية.

١٩- ادب النفس.

---

(٥٥) Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen litteratur, supplementbande, Ist. ed. Leiden 1937-42, vol., I. 355-357.

انظر كذلك : .

Massignon, op. cit., 257 - 258 .

ولقد اشار ماسنيون الى اننا من خلال دراستنا لكتب الحاكم الترمذي نجدها مطولة ولكنها غنية بالمعلومات الوثائقية حول الصوفية والفقه وعلم الكلام. ومهما يكن من امره، فاننا نجد. الترمذي ذلك الكاتب المتواضع. اذ يقول حول هذا الصدد: «ما اضفت حرفا عن تدبير ولا ينسب الي شيء منه ولكن كان اذا اشتد علي وقتي اتسلى به» «٥٦».

ومن حكمه: «اذا سكنت الارواح بالسر نطقت الجوارح بالبر» «٥٧».

وقال في الولاية: «الولي ابدا في ستر حاله والكون ناطق بولايته ومدعي الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذبه» «٥٨».

وقال في التواضع: «ما استصغرت احدا من المسلمين الا وجدت نقصا في معرفتي وايماني وما منع الناس من الوصول الا لركضهم في الطريق بغير دليل» «٥٩».

وفي القرن الثالث الهجري. ظهرت في خراسان ثلاث شخصيات مهمة في تاريخ التصوف في المشرق الاسلامي وهي ابن خضرويه وحمدون القصار وابو عثمان الحيري. هؤلاء الثلاثة كونوا مدرسة للتصوف في خراسان تدعى بالملامية او الملامتية. وفي القرن الرابع الهجري تولى ابن منازل «ت ٣٣٠هـ/ ٩٥٥م» زعامة هذه المدرسة في خراسان. والملامتية هم الذين يسترون صلاحهم بامور تتداولها العوام ليست بمخالفات ولا معاص مبالغة في الخفاء والشهرة «٦٠». ومن اقوالهم المشهورة التي تبرهن على وجود افكار المرجئة لوقت

---

(٥٦) الشعراني، ج١ص٩١: القشيري: ج١ص١٢٧ .
(٥٧) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٥٨) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٥٩) نفس المصدر، نفس الصفحة .
(٦٠) نفس المصدر ج١ ص١٠٣ .

متأخر قولهم: «الملامتية هي خوف القدرية ورجاء المرجئة» «٦١».

وكان ابو حامد احمد المعروف بابن خضروية اول من اتخذ طريقة الملامتية في التصوف. وصحب ابا تراب النخشبي وحاتما الاصم. وقيل: انه ذهب الى بسطام في قومس حيث تعلم الصوفية على ابي يزيد طيفور البسطامي «ت ٢٣٤هـ/٨٤٨م». ثم جاء الى نيسابور حيث توفي هناك عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م «٦٢».

ولقد اشار الهجويري الى انه كتب في مواضع عديدة في التصوف. الا ان مؤلفاته مفقودة. ووصلتنا اقواله وحكمه من خلال كتابات الصوفية من بعده. ومن اقواله: «من احب ان يكون الله معه في جميع الاحوال فليلزم الصدق فان الله مع الصادقين» «٦٣». وقال: «لا نوم اثقل من الغفلة. ولا رق املك من الشهوة ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة» «٦٤».

والشخصية الثانية التي لعبت دورا هاما في نشر تعاليم الملامتية هي ابو صالح حمدون بن احمد القصار. نيسابوري. ومنه انتشر مذهب الملامتية بنيسابور. صحب ابا تراب النخشبي والنصر اباذي. وكان فقيها يذهب مذهب سفيان الثوري وتوفي بنيسابور عام ٢٧١هـ/٨٨٤م. وقيل: انه قد تزعم طائفة من الصوفية سميت بعد وفاته باسمه «القصارية» «٦٥». ومن اقواله: «من نظر في سير السلف.

---

(٦١) Hujwiri, P. 66
الاصبهاني، ج١٠ ص٢٣١.

(٦٢) السلمي، ص٩٢: الشعراني، ج٢ ص٨٢ Hujwiri, P. 119-22

(٦٣) الاصبهاني، ج١٠ ص٢٤٤: وذكر القشيري في رسالته قال احمد بن خضرويه: «من اراد ان يكون الله تعالى معه فليلزم الصدق: فان الله تعالى قال «ان الله مع الصادقين» سورة البقرة اية ١٥٣: انظر القشيري: ج٢ ص٤٤٨.

(٦٤) نفس المصدر، ج١ ص٩٤.

(٦٥) السلمي، ص١١٤، الشعراني، ج١ ص٤٨: المناوي: ج١ ص٢٢٠ ومابعدها الاصبهاني: ج١ ص٢٣١ ومابعدها:
Hujwiri, P.P. 66, 125-26: Amedroz op. cit. 562, Hartmann, As-Sulami Risalat al-Malanatija, VIII, Dur Islam 1918, P. 190: Smith, Ency. of Islam, art., "Hamdunal-Qassar

عرف تقصيره وتخلف عن درجات الرجال» «٦٦». وقال: «من ظن ان نفسه خير من نفس فرعون، فقد اظهر الكبر» «٦٧» وقال: «قد علمت ان للسلطان فراسة في الاشرار، ما خرج خوف السلطان من قلبي» «٦٨». وقال: «لا تفش على احد ما تحب ان يكون مستورا منك» «٦٩». وقال في الخشوع والتواضع: «التواضع ان لا ترى لاحد على نفسك حاجة. لا في الدنيا ولا في الاخرة» «٧٠».

وقال في التوكل: «تلك درجة لم ابلغها بعد... وكيف يتكلم في التوكل من لم يصح له حال الايمان؟ وقيل: المتوكل كالطفل لا يعرف شيئا يأوى اليه الا ثدي امه، كذلك المتوكل لا يهتدي الا الى ربه تعالى» «٧١». وفي الفقر يقول: «اذا اجتمع ابليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة اشياء رجل مؤمن قتل مؤمنا ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر» ٧٢

وتولى حركة الملامتية من بعد حمدون القصار ابو عثمان سعيد بن اسماعيل الحيري. وكان من الرى تتلمذ على شاه شجاع الكرماني ويحيى بن معاذ الرازي ثم ورد نيسابور مع شاه الكرماني. وفي هذه المدينة صاحب ابا جعفر الحداد «ت ٢٧٠هـ/٨٨٣م» واصبح من مشايخ المدينة في التصوف وتزعم طائفة الملامتية ومات بنيسابور عام ٢٩٨هـ/٩١٠م» «٧٣». ومن اقواله في الايمان: «لا يكمل ايمان الرجل حتى تستوي في قلبه اربعة اشياء: المنع، والاعطاء، والعز، والذل» «٧٤». وقال في الصحبة:

---

(٦٦) الشعراني، ج١ ص٨٤ . القشيري، ج١ ص١٠٤ .

(٦٧) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٦٨) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٦٩) نفس المصدر، نفس الصفحة .

(٧٠) نفس المصدر، ج١ ص٤٧٦ .

(٧١) نفس المصدر، ج١ ص٢٧٥ .

(٧٢) نفس المصدر، ج٢ ص٥٣٩ .

(٧٣) السلمي، ١٥٩: المناوي، ج١ ص٢٣٢ ومابعدها: الاصبهاني، ج١٠ من ص٢٤٤ ص٢٤٦: ابن العماد ج٢ ص٢٣٠ . الشعراني، ج١ ص٨٦ وانظر كذلك: Hujwiri, P. 132-34

(٧٤) القشيري، ج١ ص١٠٩ .

«الصحبة مع الله: بحسن الادب، ودوام الهيبة، والمراقبة
والصحبة مع رسول الله. صلى الله عليه وسلم. باتباع سنته، ولزوم ظاهر العلم.
والصحبة مع الاهل: بحسن الخلق.
والصحبة مع الاخوان: بدوام البشر ما لم يكن اثما.
والصحبة مع الجهال: بالدعاء لهم والرحمة عليهم» «٧٥».

وقال ايضا: «من امر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة. ومن امر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق البدعة. قال الله تعالى: وان تطيعوه تهتدوا «٧٦». وقال في الخوف: «عيب الخائف في خوفه السكون الى خوفه، لانه امر خفي» «٧٧». وقال في الحزن: «الحزن بكل وجه فضيلة. وزيادة للمؤمن ما لم يكن بسبب معصية لانه ان لم يوجب تخصيصا فانه يوجب تمحيصا» «٧٨» وقال في الصبر: «الصبار: الذي عود نفسه الهجوم على المكاره» «٧٩». وقال في الاخلاص: «نسيان رؤية الخلق ودوام النظر الى فضل الخالق» «٨٠».

ولقد جمع الصوفي ابو عبد الرحمن السلمي اقوال المشايخ الثلاثة: ابن خضروية وحمدون القصار وابي عثمان الحيري في رسالة سماها «رسالة الملامتية» وفيها تعاليمهم التي تشير الى انهم يؤمنون باتمام الواجبات المناطة اليهم وعدم المطالبة بحقوقهم. كما انهم يؤمنون بحرمان انفسهم من ملذات الحياة وذلك بضبط الارادة والنفس ويحرمون هذه الملذات ولو فرضت عليهم بالقوة. ويؤمنون ايضا. بالصبر والتواضع والاعتذار عند مواجهة الظالم. ومن تعاليمهم ايضا. انهم يؤمنون بعدم اشغال انفسهم بمساوىء الغير

---

(٧٥) نفس المصدر، ج١ص ١١٠ .
(٧٦) نفس المصدر، ج١ص ١١١ : سورة النور ، اية ٥٤
(٧٧) نفس المصدر، ج١ص ٣٢٩ .
(٧٨) نفس المصدر، ج١ص ٣٢٩ .
(٨٩) نفس المصدر، ج١ص ٢٩٩ .
(٨٠) نفس المصدر، ج٢ص ٤٤٦ .

لا نهم مشغولون بمراقبة انفسهم باستمرار والعمل من أجل تحسينها. وتظهر افكار المرجئة في تعاليمهم اذ انهم يعتقدون بأن المشاكل في الحياة الدنيا هي علامة سيئة وحسنة فالسكوت والرضا في تقرير المصيرهي علامة مباركة «٨١»
ان هذه الرسالة قد نشرت من قبل المستشرق الالماني هارتمن Hartmann الذي استنتج من خلال دراسته للرسالة بأن الملامتية قد تأثرت بالفلسفة الاغريقية وبصورة خاصة الكلبيون Cynics الذين كانوا يؤمنون بضبط النفس والارادة واحتقار ملذات الحياة الدنيا. وتأثر بهذه المدرسة زينو «٣٤٠-٢٦٥ق.م» صاحب المدرسة الرواقية التي كانت تهتم بالفضيلة في الحياة العملية. والفضيلة في نظرهم السير حسب العقل ومحاربة شهوات الانسان وكانت نظرتهم للحياة تنتهي بالتقشف «٨٢».

ولقد نشر ابو العلا عفيفي الرسالة بعد هارتمن واشار الى ان الملامتية في القرن الثالث الهجري لم يتأثروا بالكلبيين بل ان تأثيرهم قد ظهر على جماعة اخرى من الملامتية والذين ظهروا في فترة متأخرة وان هذه الحركة قد شوهت تعاليم الملامتية الاولين واتبعوا مبادىء تخالف الشريعة الاسلامية . ونعتقد بأن عفيفي ربما قصد بكلامه هذا جماعة «القلندرية» وهي فرقة تابعة للملامتية اشار السهروردى الى انهم مبتدعون واعداء الشريعة «٨٣».

---

(٨١) حول تعاليم الملامتية انظر : ابو العلا عفيفي ، رسالة الملامتية. مجلة كلية الاداب، العدد ٦ القاهرة ١٩٤٢ من ص٧ الى ص١٠٤.

Hartmann, op. cit.. P.P. 157-203. Nouri, op. cit., vol. I, P.P. 95-100.

(٨٢) Hartmann, op. cit., P.P. 197-98

حول الكلبية انظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلها عن الانكليزية فؤاد كامل وجلال المشري ، وعبد الرشيد الصادق: القاهرة ١٩٦٣ ، ص٢٢٨ .

(٨٣) ابو العلا عفيفي ، نفس المصدر ، ص ٥٠ : السهروردي ، شهاب الدين عمر ، عوارف المعارف، القاهرة ١٩٣٩ ، ص٥٦ ومايليها، انظر كذلك : Nouri, op. cit., p. 100

ونستنتج من بحثنا هذا ان المستشرقين وخاصة نكلسون وهارتمن متفقان على ان التصوف في الاسلام، وخاصة في خراسان قد تأثر بالتعاليم المسيحية. بينما تشير جميع الأدلة البرهانية الى أن تعاليم الصوفية في خراسان نابعة من صميم المبادىء الاسلامية وان التأثير الوحيد الملموس، بالنسبة للفكر الصوفي. هو مبادىء المرجئة. وهذه من الفرق الدينية التي نشات في العصر الاموي وهي ضئيلة الشأن وقد امنت بالارجاء في اصدار الحكم على المؤمنين الذين يرتكبون الكبائر كالخلفاء والحكام. من قبل الله. واكتسبوا بذلك مزيدا من التساهل في الامور من قبل حكامهم. وذكرنا في بحثنا هذا كيف ان تعاليم المرجئة قد تأثر بها الصوفي يحيى بن معاذ الرازي الذي اسهم اسهاما كبيرا في نشر تعاليم الصوفية من خلال خطبه والحلقات التي عقدها. كما ان تأثير المرجئة يبدوا ظاهرا في فترة متأخرة في القرن الثالث الهجري وذلك عن طريق تعاليم مريدي طريقة الملامتية. وقد اسهم الحاكم الترمذي من خلال كتاباته الغزيرة والتي تعتبر مع تعاليم الملامتية اساسا للفكر الصوفي في القرن الثالث الهجري في خراسان. ولا يسعنا في التدليل على اصالة التصوف في الاسلام الا ان نشير الى قول ابن خلدون حول علم التصوف: «هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة واصله ان طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية. واصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاما على الصحابة والسلف. فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده جنح الناس الى مخالطة الدنيا واختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.» «٨٤».

ويتضح من قول ابن خلدون ان التصوف حادث في الملة الاسلامية وليس هو

---

(٨٤) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، طبع بالاوفست بمكتبة المثنى ببغداد، ص٤٦٧.

من العلوم الطارئة في تاريخ الاسلام وجاء نتيجة تفاعل عقائد وعادات طوائف دينية استظلت بظل الاسلام ومبادئه. بل هو سلوك اتخذه الصحابة والتابعون ومن بعدهم .الى ان نشأ في الناس الاقبال على الدنيا . وجنحوا الى مخالطة اهلها فاختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية .والمتصوفة واعلام الصوفية في خراسان ماهم الا تلاميذ للمسلمين الاوائل حافظوا على اصالة الاسلام من اية شائبة .